مقدمة في اللغة والحضارة

د . ابراهيم السامرائي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

بحث أهل العلم من المفكرين والفلاسفة في مدلول « الحضـــارة » وما تنصرف اليه في شؤون الحياة وما يتصل بالناس من أفكار وعادات ومواد وطرائق . ولعلهم انتهوا الى ان البشرية الأولى قد مرت بمراحـــل انتهت الى نموذج حضاري من الاستقرار والفكر والسلوك ، وما يتطلب جماع هـــذا من لوازم .

ومن غير شك ان في هذه المادة من الافكار العامة والمباديء الاساسية قدراً كبيراً يجمع بين الحضارات قديمها وحديثها في مشرق الارض ومغربها . وهذا لا يبعد ما تتصف به الحضارات المختلفة من سمات خاصة فرضـــها الزمان والمكان . وهذا يؤدي الى أن تكون حضارة الاقسام الشمالية غـــير حضارة الاقسام الجنوبية ، وحضارة الاقاليم البحرية شـــيء آخر ، ثم ان حضارة البلدان الباردة غير تلك التي تشتد فيها الحرارة ، ومثل هذا يقـال في الحضارة اليونانية والرومانية والعربية والايرانية والهندية والصـــينية . وليس غريباً أن تطبع الاديان الحضارات بطابع خاص فالحضارة المســيحية غير الحضارة الاسلامية مثلاً .

قلت : لقد بحث أهل العلم في مادة « الحضـــارة » ، فكان طبيعياً ان يعرضوا لما يتصل بمصـــطلح « المدنية » . وليس في العربية فرق كبير بين الحضارة والمدنية ذلك أن « الحضارة » متصلة بالحَضَر والحاضرة ، ومثل

ذلك « المدنية » التي تتصل هي أيضا بالمدينة [1] . غير ان الباحثين في الموضوع ذهبوا بعيداً في الكلمتين الاعجميتين

ولا يهمنا في هذه الدراسة شيء كثير من ذلك .

ان الحضارة في العربية نقيض البداوة ، والحاضرة تقابل البادية وكلمة « الحضر » تقابل كلمة « البدو » . ولقد أحسن الشاعر القديم حين قال :

ومن تكن الحضارةُ أعجبتْه فأيُّ رجالِ باديةٍ ترانا

ومن غير شك ان « البداوة » تشغل حيّزاً كبيراً في « العربية » وذلك أن الأصول القديمة في العربية اعتمدت من بين ما اعتمدت على مادة ذات أصول عميقة في الحياة البدوية . ولا أريد أن أصرف الجهد فأعرض لهذا الموضوع وذلك لاني أفردت له دراسة خاصة [2] تتصل بتاريخ العربية .

وفي طوق أي باحث ان يهتدي الى المواد البدوية في أدبنا القديم مما يتصل بالبادية ولوازمها من شخوص مادية وأخرى مما يعود الى الحيوان والنبات والشجر . وكثير من هذا واضح في الادب القديم جاهليّهِ واسلاميّهِ ، ولا حاجة بنا الى ان ندل على ذلك فهو معلوم مشهور .

وكأنّ الباحثين لما رأوا من صفات البداوة في أدبنا القديم أخذوا بذلك وغلّبوه على سائر الصفات الاخرى حتى لكأن ذلك الادب مقصور على أنماط بدوية لا يتجاوزها الى غيرها . وكأن « الجاهلية » شيء يرادف الجهل للبداوة التي غلبت على غيرها من مظاهر الحياة الجاهلية الاخرى .

---

(1) المدينة كلمة قديمة لا تختص بالعربية وحدها من بين اللغات السامية وذلك لان مادة « دين » وهي مادة سامية تعني الحكم والقضاء . ومن هنا ظل شيء من ذلك فقيل « يوم الدين » في العربية للدلالة على الحكم والحساب . وكانت كلمة « بيت دين » في العبرانية تعني « المحكمة » او دار الحكم ، وكان من ذلك ايضا ان تكون مكان اجتماع الناس للحكم والسلوك الانساني الذي يعتمد على الحق والنظام .

(2) كتاب يتصل بتاريخ العربية موسوم بـ « من تاريخ العربية » .

ان مصطلح الجاهلية شيء جاء به الاسلام ، وهو من غير شك نبز لجميع مظاهر الحياة قبل الاسلام . ومن غير شك أيضا أن « الجاهلية » بالنسبة الى الاسلام حياة تفتقر الى كثير من مظاهر الحياة الحضارية التي جاء بها الاسلام فكراً وعقيدة وسلوكاً . ولعل الباحثين سعوا مدفوعين بهذا النظر ، وغير شاعرين ، الى سلب كل فضيلة من عهود الجاهلية المنبوزة ، فلم يتحروا المظاهر الحضارية في عصر ما قبل الاسلام عامة .

ومن حق العلم ان يفترض الباحث الجاد ان في تلك العهود التي سبقت الشريعة الغراء أنماطاً حضارية تتصل بالأدب والفكر والسلوك ومظاهر مادية حسية عرفها الناس وأفادوا منها .

ومن البديهي أن يكون أولئك القوم في جاهليتهم على نحو فكري متقدم اذا عرفنا أن كتاب الله ، مصدر الفكر والحكمة ، قد توجه اليهم وخاطبهم وقد بشر الرسول الأمين به التماساً لهدايتهم ، وليس من العقل والمنطق أن يأتي كلام الله بهذا السداد والحكمة في قوم غلبت عليهم بدائية جاهلة لا تفقه الا اليسير مما يضطربون فيه .

وفي كلام الله ما يومىء الى أن العرب غير الأعراب فاذا كان القرآن قد نبز أولئك الاعراب بالجفوة والقسوة والضلالة فلا يعني ذلك ان جمهرة المجتمع القديم بداة جفاة لم يهتدوا الى شيء من معاني الحياة الحضرية .

ومن الغريب ان الباحثين في تاريخ الادب القديم قد فاتهم علم كثير حين زعموا أن الأدب العربي القديم أدب بيئة بدوية ، وهم يشيرون الى وصف الفلوات والاطلال والدمن وما يعرض فيها من حيوان ونبات وشجر . وهم يشيرون كذلك الى أن الشاعر القديم يقطع تلك البيد على راحلته فيصف سيرها ويصف الطريق الذي يدرج فيه ثم يأتي على وصف تلك الراحلة . وجملة هذا وغيره من مواد الأدب تؤلف الصورة البدوية الجاهلية .

قلت : ان الباحثين في الأدب قد فاتهم علم كثير حين ذهبوا ذلك المذهب فقلدهم فيه خلق كثير وسار على نهجهم الدارسون الى يومنا هـــذا . ان الاستقراء الوافي لمادة الأدب القديم تكشف عن صـــفحات جديدة غريبة لم يهتد اليها أولئك الدارسون .

أقول : ان الاستقراء الوافي ليشير الى أن جملة ما تشتمل عليه القصيدة الجاهلية حشد لمواد كثيرة لا تعدم أن تجد فيها فكراً يتصل بحضـــــارة وأدوات وحاجات تبتعد عن البداوة المعروفة . وسأعرض بعد هذه المقدمـــة لاستقراء ما في الأدب الجاهلي من مواد الحضارة لأدفع بالدليـل الأكيد ان الجاهلية لم تكن خلواً من الفكر الذي استطاعت العربية في تلك الأحقـــاب أن تفي بهذه المهمة فكانت لغة حضارة وبداوة في الوقت نفسه .

ومن غير شك أن الاسلام قد امتحن هذه اللغة فكانت في عهوده كلهـا الأداة المحكمة في الوفاء بالحضارة الجديدة التي جاء بها الاســـلام عقيـــدة وأحكاماً وسلوكاً . ثم ان هذه الحضارة الجديدة قد اندفعت شرقا وغربـــا فكان لها أن تتصل هنا وهناك بأنماط حضارية أخرى .

ولقد كانت هذه محنة جديدة امتحنت بها العربية فكانت اللسان المفضل للإعراب عن هذه المواد الجديدة من أجنبية وافدة وأخرى مما تمخض عنه اتصال الفكر العربي الاسلامي بغيره مما واجهه في تلك البقاع التي انـــاخ فيها .

وسأعنى ببيان هذه الألوان التي استطاعت فيهـــا العربية أن تفي بتلك المواد في العصور المختلفة وسأنتهي من ذلك الى شيء مما تضطلع به العربيـــة في عصرنا هذا فتواجه العصر الجديد بمشكلاته العلمية المعقدة .

ولعلي سأفي بشيء من هذا فأثبت مادة لها مكانها وخطرها في تـــاريخ لغتنـــا .

لقد حفل أدبنا القديم بمواد حضارية تتصل بالعقيدة الدينية وبأنمـــاط أخرى من فنون وأدوات هي من صنع الاستقرار الحضاري .

واني لأبدأ بما يتصل بالفكر الديني في نفوس الأدب القديم فأجد من ذلك قول امرىء القيس[٣] :

حلّت لي الخمرُ وكنت امرءاً عن شربها في شُغلٍ شاغل

فاليوم أسقى غير مستحقبٍ إثماً من الله ولا واغل

قال : « حلت لي الخمر » وذلك لما قتلت بنو أسدٍ أباه حرّم على نفسه الخمر حتى يأخذ بثأر أبيه ، فلما غارَ عليهم وقتلهم حلّت له .

وقوله : « غير مستحقب اثماً من الله ولا واغل » أي غير مكتسبه ولا محتمله فيقول : انه يشرب الخمر وقد حلّت له فلا يأثم ، ويكرّم نفسه عن أن يشرب الوغل وهو ما يشربه الواغل أي الذي يدخل على الشاربين فيشاركهم الشراب من غير ان يدعى له كالوارش مع الطعام .

وهذا النص يشعرنا ان من الجاهليين زمن الشاعر امرىء القيس من يؤمن بالله فيتحرج من شرب الخمر . وهو يعني ان لهم قدراً من فكر ديني مادته ألوهية حقة تتوزع في فرائض ورسوم وواجبات . وهذا شيء من مادة حضارية متقدمة في السلوك الانساني سمحت به عربية جاهلية اضطلعت بنماذج حضارية الى جانب غناها بالمواد البدوية .

ان الدارس ليحظى في كثير من مواد أدب الجاهليين على ما يتصل بالحياة الدينية في صورها القديمة ورسومها التي مارسوها في حياتهم فهذا بشر ابي خازم يقول[٤] :

حلفت برب الداميات نحورها وما ضم اجواز الجواء ومذنب

فهو يحلف بالهدي الذي ينحر للآلهة .

واذا قرأت قول امرىء القيس[٥] :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمسى راهبٍ متبتل

---

(٣) ديوان امرىء القيس (دار المعارف) ص١٢٢

(٤) ديوان بشر بن ابي خازم (دمشق ١٩٦٠) ص٨

(٥) ديوان امرىء القيس ص١٧

ادركت صورة الراهب الاشيب المتبتل ومصباحه في جوف الليل . ومن غير شك انه شبه وجه حبيبته بذلك . ان هذا المشهد الذي يقربه الشاعر من بيئة حضرية تنتظمها شخوص ومشاهد دينية قد برز في أدبه فكان منه نماذج عدة . ثم ان الاشارات الى الأديان وأهلها والى شيء من لوازمها لكثيرة جداً فهذا امرؤ القيس يشبه ناقته ببنيان اليهودي اظهاراً لقوته وصلابة عودها فيقول(٦) :

فعزّيت نفسي حين بانوا بجسرة ... امون كبنيان اليهودي خيفق

ولعلك تلمح مادة حضارية في لغة جاهلية وأنت تقرأ قول بشر(٧) :

فقل كالذي قال ابن يعقوب يوسف ... لاخوته والحكم في ذاك راسب

فاني سأمحو بالذي أنا قائل ... به صادقاً ما قلت اذ أنا كاذب

ان هذه الاشارات التاريخية وضرب المثل بذلك ليشير الى ان الشاعر الجاهلي لم ينصرف الى البيئة الجاهلية انصرافاً لا تعرف فيه اشراقة حضارية. وهذا يهدينا الى القول ان العربية الجاهلية قد عرضت لها محنة الاعراب عن نماذج حضارية في بيئة أخذت من هذه المواد قدراً .

ولقد أشرت الى حديث الشاعر القديم عن الراهب ، ولم يكن ذلك شيئاً نادراً في ذلك الادب القديم فقد ألفه الدارس وعرف ان الجاهليين عرفوا الديارات وما يقيم فيها الرهبان من رسوم دينية وما يشتمل عليه من أدوات ومواد تنتظم في ذلك الاطار الديني .

يقول امرؤ القيس(٨) :

نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال

والاشارة الى النار ، أي نظرة الى النار .

---

(٦) المصدر السابق ص١٦٩

(٧) ديوان بشر ص٤٢

(٨) ديوان امرىء القيس ص٢١

ثم يقول وهو يصف البرق[9] :

يضيء سناه أو مصابيح راهب أهانَ السليطَ بالذبالِ المفتّل

ألا ترى ان هذه الصورة للبرق من شخوص الطبيعة بدوية كانت أم حضرية قد حظيت بصورة مشبهة لها حضرية خالصة لها حين ذكر الشاعر أجزاء الصورة من الزيت والذبال المفتل أي الفتائل .

ولا بد لنا أن نعرض لهذه الشخوص الجادة والتي تنتظم في الحياة الدينية بل قد تؤلف مادة فكر ديني جاهلي فنقرأ في ديوان أوس بن حجر[10] :

حلفت برب الداميات نحورها وما ضم أجياد الكُبَيْشِ وكَبْكَبُ

فهو يقسم برب الهدي يساق الى البيت فينحر تقرباً . ثم ان هذا الحلف والقسم ليتجاوز « ربَ الداميات » فيكون اللات والعزّى ثم الله وهو أكبر من هذه الآلهة المشلة بالأوثان فيقول[11] :

وباللات والعزّى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

وهو يقول أيضاً[12] :

فان يَهوَ أقوامٌ رَدايَ فانما يقيني الاله ما وفى وأصادف

ثم يقول[13] :

فلا وإلهي ما غدرت بذمة وانَ أبي قبلي لغيرُ مُذمَّم

---

(9) المصدر السابق ص٢٤

(10) ديوان اوس بن حجر ص٧

(11) المصدر السابق ص٣٦

(12) المصدر السابق ص٦٤

(13) المصدر السابق ص١١٨

وما أظن ان هذا الأدب وهو يفصح عن هذا الخلق الديني منصرف الى بداوة جافية أو بعيد عن فكر حضاري قائم على عقيدة دينية راسخة الأصول .

وأنت تبصر ان الشاعر الجاهلي يملك زاداً نافعاً من ثقافة يستعين بها على الاعراب عن أدبه وفكره القديم فهذا أوس الشاعر يقول[١٤] :

اذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهوّل حالف

ان المهوّل هو القائم على النار المقدّسة والضمير في قوله « استقبلته » يعود الى الثور الوحشي . لقد كانوا يحلفون بالنار وكانت لهم نار يقال انها كانت باشراف اليمن ، فاذا تفاقم الأمر بين القوم فحلف بها انقطع بينهم، وكان اسمها هولة أو المهولة ، وكان سادنها اذا أتي برجل هيئه من الحلف به ولها قيّم يطرح فيها الملح والكبريت فاذا وقع فيها استشاطت وتنقضت فيقول هذه النار قد تهدّدتك . فان كان مريباً تكلّ وان كان بريئاً حلف[١٥] .

وأنت تحسّ ان هذا الشاعر الذي وصفناه أنه بدويّ فلم تنظر الى ما كان له من ثقافة واسعة يقول[١٦] :

والفارسية فيهم غير منكرة فكلهم لابنه ضيزن سلّيف

وفي البيت اشارة الى ما أباحته الفرس من تزوج الولد من أمه وخالته .

---

(١٤) المصدر السابق ص٦٩

(١٥) المعاني الكبير ط. حيدر آباد ـ الهند ٤٢٤/١

(١٦) ديوان اوس ص٧٥

وفي ديوان زهير بن أبي سلمى مادة حضارية ذات قيمة تاريخية . وانك لتشعر أن هذا الشاعر ليس بعيداً عن فكر اسلامي متقدم حين يقول[17] :

فلا تكتمُنَّ اللهَ ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعلمِ
يؤخَّر فيوضع في كتابٍ فيُدَّخَرْ
ليوم الحساب أو يُعجَّل فينْقَمِ

ان أجزاء هذين البيتين وهي الله والكتاب والحساب وما يتبع ذلك من لوازم ، خلاصة فكر ديني ثابت الدعائم راسخ الأصول .

ومثل هذا نجده في شعر لبيد وهو أحد أصحاب المعلقات . وقد يقال ان لبيداً أدرك الاسلام فثقف من مادته شيئاً ، غير أننا لا نستبعد أن يكون قد عرض له كثير من هذا في جاهليته .

ولنعرض لحديث « الكتابة » في تلك النماذج الأدبية القديمة لنتأكد أن وجوهاً حضارية حفل بها أدبنا القديم وان العربية الجاهلية كانت لغة حضارة الى جانب الاعراب عن معاني البداوة وأجزائها الكثيرة .

فهذا امرؤ القيس يقول[18] :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخطّ زبور في عسيب يمان

يقول : أحزنني الطلل كخط زبور أي درس فلا يرى منه الا مثل الكتاب في الخفاء .

وهو يقول[19] :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفانِ
ورسم عفت آياته منذ أزمان .
أتت حجج بعدي عليها فأصبحت
كخطّ زبور في مصاحف رهبان

---

(17) شرح ديوان زهير ص١٨
(18) ديوان امرىء القيس ص٨٥
(19) المصدر السابق ص٨٩

انك تبصر أنه شبه الرسم الدارس للطلل بالزبور وخطه الذي أتى عليه الزمان فمحا من سطوره ما محا ، وهو يشير الى أن هذا « الكتاب » المزبور من صحف الرهبان في ديراتهم . وما أظنك الا أن تذهب معي في أن الأديب الجاهلي ليس كأحد من أهل البـــداوة ممن انقطعوا في باديتهم فلا يرون الا الفلاة وشخوصها البدوية .

وهذا بشر بن أبي خازم يقول فيعرض « لكتاب بني تميم » فيقول[٢٠]:

وجدنا في كتـــــاب بني تميم أحق الخيـــل بالركض المُعار

وهو يقول أيضاً حين يعرض للرسوم والأطلال[٢١] :

كأنّهـــا بعـــد عهـد العـاهدين بهـــا
بين الذَنوبِ وحَزمي واحِفٍ صَحِفُ

وهذه الصورة وهي تشبيه الطلل الدارس بالكتـــاب الذي أتت على سطوره الأيام ، ترد كثيراً في أدبهم القديم فهذا زهير يقول[٢٢] :

لِمَن طلل كالوَحيِ عافٍ منازلُه عفا الرَسّ فالرسيسُ فعاقِلُه

والوحي هو الكتاب . وحديث « الوحي » هـذا كثير في شـــعره ومنـه[٢٣] :

دارٌ لأســـماء بالغَمرين ماثلةٌ كالوحي ليس بها من أهلها أرِمُ

أي ليس بها أحد .

وقولـه[٢٤] :

لِمَن الديـــار غشيتها بالفَدفَدِ كالوحي في حَجَرِ المَسيلِ المُخلِدِ

---

(٢٠) ديوان بشر ص٧٨
(٢١) المصدر السابق ص١٢٧
(٢٢) شرح ديوان زهير ص١٢٦
(٢٣) المصدر السابق ص١٤٦
(٢٤) المصدر السابق ص٢٦٨

والاشارة الى الكتابة والكتاب والصحف والزبر كثيرة في أدبهم فهـذا لبيد يقول[٢٥] :

دَرَسَ المَنا بمُتالعٍ فأبانِ وتقادمت بالحَبْسِ فالسُّوبانِ

فمِعافِ صارةَ فالقَنانِ كأنها زُبَرٌ يُرجِّعُها وليدٌ يمانِ

متعوِّدٌ لَحِنٌ يُعيد بكفِّه قلماً على عُسُبٍ دَبَلنَ وبانِ

فأنت ترى الصورة كاملة تنتظم الوليد اليماني ممسكاً بكفه القلم يخطّ على الزبر .

وهو يقول أيضاً[٢٦] :

عفا الرسم أم لا بعدَ حَولٍ تجرَّما
لأسماء رسمٌ كالصحيفة أعجما

ويقول أيضاً[٢٧] :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها
زُبُرٌ تجدّ متونها أقلامُها

فالصحيفة والاقلام والزبر شيء استعان بها الشاعر لتصوير مادته البدوية . ألا ترى غلبة مادة الحضارة على أنماط البداوة المتخلفة .

ولا بد أن أعرض للصور الفنية الأخرى في أدب الجاهليين الأقدمين فأشير الى الرسم والنحت والغناء والآلات وغيرها .

---

(٢٥) ديوان لبيد (ط. الكويت) ص١٣٨

(٢٦) المصدر السابق ص٢٧٨

(٢٧) المصدر السابق ص٢٩٩

هذا هو امرؤ القيس يعرض لبيت بجوار وادي الساجوم كأن دمى سقفه الحور الغرائر قد حلين الياقوت وقلائد الذهب على هيئة فقر الجراد ، تضوع منهن رائحة السنا الذكية فيقول[٢٨] :

كأن دمى سقف على ظهر مرمر
كساه مزيد الساجوم وشيا مصورا
غرائر في كن وصون ونعمة
يحلين ياقوتا وشذرا مفقرا
وريح سنا في حقة حميرية
تخمش بمفروك من المسك أذفرا
وبانا وألويا من الهند ذاكيا
ورندا ولبنى والكباء المقشرا

أقول : ألا ترى أن « بيت » امرىء القيس هذا ليس الا قصراً من قصور الحضارة المترفة الانيقة فقد حفل بصور الدمى والوشي المصور والبناء ذي السقف من المرمر . ثم انه استعان على ذلك فشبه الدمى بالغرائر الحسان ذوات الصون والنعيم في أكمل زينة وأجل هيئة .

أما الحديث عن النعيم المتمثل في الوشي الأنيق الذي يشير الى أن الجاهليين عرفوا ضروباً من الترف فنجده في قول امرىء القيس[٢٩] :

خرجت بها تمشي تجر وراءنا
على أثرينا ذيل مرط مرحل

والمرط المرحّل هو الثوب الموشّى والذي عُيّنَ وشيه كتعيين جدّيات الرَحْل وهو ضرب من البرود .

---

(٢٨) ديوان امرىء القيس ص٥٩
(٢٩) المصدر السابق ص١٤

ومن لوازم الترف والاناقة العطور التي وردت في أدبهم وها هو ذا امرؤ القيس يقول[٣٠] :

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها
تؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضّل

وأنهم كانوا يجتهدون في أن يتوفر لديهم من مواد الترف فيجلبونها من الهند وأطرافها تجارة بحرية بالسفن والى هذا يشير الشاعر فيقول[٣١] :

اذا ذقت فاها قلت طعمَ مدامةٍ
معتّقة مما يجيء به التجّرُ

وقد عرفوا هذا اللون من التجارة ولذلك جاء في تشبيهاتهم[٣٢] :

فشبّهتهم في الآلِ لما تكمّشوا
حدائقَ دَوْمٍ أو سفينا مقيّرا

وأنت تدرك من تشبيهاتهم أنهم عرفوا من مواد الحضارة والترف والاناقة القدر الكبير فامرؤ القيس يشبه لحم ناقته بهدّاب الدمقس المفتل أي الحرير المفتول فيقول[٣٣] :

يظلُّ العذارى يرتمينَ بلحمها
وشحم كهدّاب الدِمَقس المفتّل

ويقول[٣٤] :

اذا ما الثريا في السماء تعرّضتْ
تعرّضَ أثناء الوشاحِ المفصّل

---

(٣٠) المصدر السابق ص١٧
(٣١) المصدر السابق ص١١٠
(٣٢) المصدر السابق ص٥٧
(٣٣) المصدر السابق ص١١
(٣٤) المصدر السابق ص١٤

ويقـــول[٣٥] :

دَعَرت بهـــا سرباً نقيـــاً جلوده
وأكرعـــهُ وشيُ البرود من الخـــالِ

ويقـــول[٣٦] :

وعنس كألـواح الأران نســـأتها
عـــلى لاحبٍ كالبُرْدِ ذي الحِبَراتِ

لقد شبه الطريق اللاحب بالبرد الموشى أي ذي الحبرات .

وهذا بشر بن أبي خازم يعرض لاخفاف ناقته التي بليت من الســـير فيشبهها بقطع الزجاج المتكسر فيقول[٣٧] :

وقـد بَلِيَ الاخفـــافُ الا وشـــائظاً
بقين لهـــا مثل الزُجـــاج المُهشَّمِ

وكأنهم ضاقوا ذرعاً ببيئهم البدوية أحياناً فتوجهوا الى مشـــاهدهم الحضرية وها هو ذا زهير يقول[٣٨] :

يقطعْنَ أجواز أميـال الفـلاة كما
يغشَى النواتي غمار اللُجِّ بالسُفُنِ

وهكذا ترى النواتي في غمار اللج في السفين كما تقرأ قوله وهو يشـبه الابل مجتمعة في سيرها ، سريعة في الفلاة حيث لا ماء فيها فيقول[٣٩] :

معصوصباتٌ يُبـادِرْنَ النجاءَ بنـا
إذا ترامت بهـــا الديمومـــة الجَدَدُ
عوم القوادس قفّى الأرْدَمون بهـــا
إذا ترامى بهـــا المغلوبُ الزَبَدُ

---

(٣٥) المصدر السابق ص٣٧
(٣٦) المصدر السابق ص٨١
(٣٧) ديوان بشر ص١٩٨
(٣٨) شرح ديوان زهير ص١٥١
(٣٩) المصدر السابق ص٢٨٠

والقوادس هي السفن ، والأردمون جمع أردم أي الملاح .

أما حديث الزراعة فكثير أيضا وها هو ذا الشاعر لبيد يعرض للنخيل فيقول[٤٠] :

جَعْلٌ قصارٌ وعَيْدانٌ ينوء بها
من الكوافر مكمومٌ ومهتصرُ

الجَعْلُ : القصار من النخل . والعَيْدان : الطوال . وينوء به : ينهض به ، وقال أبو عمرو : يسقط به . ومكموم أي كمامته غلاقة . ومهتصر: متدلٍ .

ثم يقول :

يشربْنَ رنهاً عِراكاً غير صادرةٍ
فكلهنّ كارعٌ في الماء منغمرِ

أما حديث الغناء وآلاته فكثير في أدبهم وها هو ذا عبيد بن الابرص يقول[٤١] :

ومسمعة قد أصحل الشربُ صوتها
تأوّي الى أوتار أجوفَ محنوبِ

أي ان الشاربين أصحلوا صوتها أي جعلوه مبحوحاً فهي تلجأ الى أوتار آلتها المحنية .

وها هو ذا الشاعر طرفة يقول[٤٢] :

تداماىَ بيضٌ كالنجومِ وقَيْنةٌ
تروحُ علينا بين بُردٍ ومجْسَدِ

---

(٤٠) ديوان لبيد ص٥٨

(٤١) ديوان عبيد بن الابرص (تحقيق حسين نصار) ص٢٥

(٤٢) ديوان طرفة (ط. صادر) ص٣٠

ولا بد من الاشارة الى ما يتصل بالزرع من العناية المقصودة لأخلص الى مكان اللغة في هذا اللون الحضاري . لعله من الثابت أنه لم يؤثر عن الجاهليين شيء كثير مما يتصل بالفلاحة والزرع والاهتمام بالأرض على أنها مستقر وقرى تزرع فيتخذ من ذلك مادة حضارة واستقرار . ولم يشذ عن هذا النمط من الحياة الجاهلية القديمة الا ما عرف عن أطراف بلاد العرب كما كان في اليمن التي كان فيها للزراعة مكان أي مكان ، وكما كان في يثرب والطائف من عناية بصنوف الشجر المثمر والنخيل ومثله ما كان في هَجَر وأطراف عمان .

غير اننا لا نعرف اهتماماً بالأرض وزراعتها الا في العصر الاسلامي فقد جاء في الأثر : ان الرسول (ص) قد اهتم بالارض ووزّعها بين طائفة من المسلمين فأقطع علي بن أبي طالب أرضين هنا وهناك كما أقطع الزبير وأبا بكر وعبدالرحمن بن عوف وأبا دجانة سماك بن خرشة الساعدي . وخلف بعد الرسول الراشدون فساروا سيرته بالعناية بالارض ولا سيما في الأقاليم المفتوحة ، ومثل ذلك كان في خلافة بني أمية .

وكانت العربية قد وفت بهذه الحاجات الجديدة مما اقتضته الزراعة من تهيئة الأرض وسقيها وما يستخدم في ذلك كله من أدوات وآلات . ولابد ان نستقرى هذه المواد مما يتصل بمصادر المياه كالآبار والعيون والغدران والمسايل . ان مجموع هذه المواد تؤلف معجماً وافر المواد يتصل بالزرع وحاجاته وأدواته . وقد فطن الى هذا الباب اللغويون الاقدمون فصنّفوا رسائلهم في طائفة من موضوعات هذا الباب الكبير ، فكانت كتب للنبات وكتب للشجر وكتب للكرم وكتب للنخل وكتب أخرى تتصل بالزرع والأرض وما يلزمهما من مواد .

وأنت تستطيع أن تجمع شيئاً مما يتصل بأدوات السقي وأدوات الزرع من كتب اللغة العامة(٤٣) . ومن غير شك ان اللون البدوي كان يشغل من الرقعة العربية ومن طبقات المجتمع القديم حيّزاً كبيراً . ان البداوة أبقت ميسمها وطابعها في حياة الجاهليين وعاداتهم وأخلاقهم وأدبهم وسائر أوجه النشاط الانساني القديم . ولعل شيئاً من هذا عرض للاسلاميين فلم ينج نفر من هذه الآثار البدوية . وقد ارتضى هؤلاء البداوة أسلوباً وحياة ، ومن ثم فقد تنكروا لمظاهر الحياة الحضرية وما يتصل بها من الزراعة والعناية بالأرض فذموا هؤلاء الذين لزموا الأرض وعنوا بها .

غير أننا لا نعدم أن نجد طائفة أخرى رضيت عيش الحضر فاهتمت بالزراعة اهتماماً نلمحه في أدبهم . واذا كان هناك اهتمام بالزراعة فلا بد أن يكون اهتمام آخر بنواحي الحياة الحضرية الاخرى كالاهتمام بالحرف التي نظر فيها أهل البداوة لوناً من ألوان الذل والجبن والاستكانة .

وكان أهل الحواضر قد استساغوا نمط العيش ذلك اننا نجد أمية بن أبي الصلت من الجاهليين قد عاش في الطائف الحاضرة التي عرفت الزرع والخضرة والبساتين وهو يشير الى ذلك في قوله :

فأنبتنا خضارم ناضرات يكون نتاجها عنباً وتينا

ومن المواطن الحضرية في بلاد العرب « البحرين » التي عرفت ببساتين النخل والشجر ، ومن أجل هذا جاءت الاشارات الى هذا في قول الصلتان العبدي وهو يرد على الشاعر جرير الذي عيّر قومه بأنهم أهل نخل وزرع ، قال :

أعيّرتنا بالنخل ان كان ما لنا
لودّ أبوك الكلب لو كان ذا نخل

---

(٤٣) انظر « المخصص » لابن سيده في ابواب الارض والزرع وما يتصل بهذا . ومثل ذلك كتاب « التلخيص » ٢/٤٤٢ ، ٤٧٢

وهو يشير في قصيدته هذه الى أن قرى الزرع والنخل موطن أهل الخير والصلاح ، وان الله ـ جل وعلا ـ اختار النبيين والرسل منهم وهو يقول :

وأيّ نبيٍّ كـــان من غـــير قريـــة
وما الحكم يا ابن اللؤم الا مع الرّسْل

وليس غريباً ان يرى الصلتان العبدي في الفـــلاحة والزرع مظهراً من مظاهر الخير والصلاح ، في حين ان جريراً يرى في هذه المظاهر الحضريـــة عيباً ونقصاً لا يحسن بأهل المروءة أن يلتزموا بها وهو يقول :

أقول ولم أملك ســـــــوابق عبـرة
متى كان حُكم الله في كَرَب النخـــل

وهو يخاطب الصلتان بهجوه فيقول :

كم عمة لك يا خُنَيْد وخالـــة خضر نواجزها من الكـــرّاث
نبتت بمنبتـه فطـاب لشَـــمّها ونأتْ عن القيصوم والجِثْجاث

فأنت ترى مقدار تعلق جرير بالبيئة البدوية وبعـــدها عن مواطن الحضارة التي ارتضت الزرع وسيلة للعيش واستقراراً في قرى النخـــل والشـــجر .

وهذا أمية بن أبي الصلت يذكر أهله بأنهم يلومونه على اقتناء بساتين النخل فيقول :

يلومونني في اشـــتراء النخيل أهلي فكلّهمُ يعذل

وبعد فهذا عرض لصور من أدبنا القديم برزت فيها امارات حضريـــة بعيدة عن البداوة الجافية . وقد أدركنا منها أن في العربية الجاهلية ســـعة للاعراب عن مظاهر الحضارة كما هي حافلة بسواد البداوة في الوقت نفسه ،